عن هؤلاء وليس عن اولئك(١ ومعنى الصعف عندهم ماء العنب يُشرح ويُطرح حتى يبقى منهُ نصفهُ او ثلثاهُ

(١٣٥ الصِيرُ) بمعنى الصَحْناة (saumure) او سمكات مملوحة يُعمل منها الصحناة مقطوعة من σαπέρδης وباللاتينيَّة (saperda) بمعناها

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٢١ دخول النصرانيَّة في لبنان (لاحق بسابق)

واوَّل ناسك ورد ذكرهُ في لبنان عاش في عهد القيصر ديوقلسيان واسمهُ إرَنْسس وكان مولدهُ في انطاكية العظمى وسُقِّف على مدينة لم يُعرف اسمُها. فلمَّا امتحن ديوقلسيان المسيحيين بالاضطهاد ترك إرَنْسس كرسيَّهُ الاسقفيّ وتوغَّل في لبنان وتعبَّد فيه في احدى مغاورهِ وبقي على ذلك سبع سنين حتى ألهمهُ الله ان يعود الى انطاكية ليثبت المؤمنين في الايمان ففعل واستشهد اخيرًا في ايطالية (٢

وكانت مدارس بيروت في تلك الاثناء تنير بتعاليمها العالم الرومانيّ. وكان كثير من النصارى يزدحمون في معاهدها ليأخذوا العلم عن اشهرها. اشتهر في جملتهم القديس غريغوريوس صاحب العجائب والقديس اثينودورس في النصف الاوَّل من القرن الثالث. ومِمَّن اشار اليهم التاريخ في عهد ديوقلسيان شهيدٌ في مقتبل العمر يُدعى افيان او أمفيان كان اصلهُ من ليقيـة ودرس في بيروت ثم استشهد سنة ٣٠٥ في قيساريَّة فلسطين ولهُ من العمر ٢٠ سنة فقط (٣. وفي أيَّامهِ مات في سبيل الايمان في انطاكية الكاهن

---

١) ونرجّح انَّ العرب اخذوها عن اليونان لا عن الرومان لانَّ الالفاظ المشتقَّة في اللغة العربيَّة عن اللاتينيَّة قليلة كما بيَّنَّا ذلك مرارًا. واذا دخل شيء منها فلم يدخل الَّا بواسطة اليونانيَّة م. ل

٢) راجع اعمال القديسين البولنديين في ٢ حزيران

٣) راجع اوسايوس في تاريخ شهداء فلسطين واعمال البولنديين في ٢ نيسان

زينوبيوس وكان اصلهُ من صيداء وقد روى اوسابيوس في تاريخهِ (ك ٨ ع ٣) انهُ كان طبيباً وانهُ اتقن الطبّ حتى برزَ فيهِ

واخذت النصرانيَّة بعدئذٍ تقوى وتنتشر في مدن فينيقية الساحليَّة حتَّى ان الأُسَر الشريفة نفسها صارت تدين بدين المسيح. وقد انبأنا التاريخ بذكر شابّ بيروتي كريم الجدّ اسمهُ پنفيل كان درس على اشهر اساتذة وطنهِ حتى اضحى نسيج وحدهِ في العلوم الدنيويَّة لكنَّهُ آثر عليها درس الاسفار المقدَّسة فانتقل الى قيسارية حيث رُقّي الى درجة الكهنوت وانشأ لهُ مكتبة حافلة بالتآليف القديمة. وكان موتهُ استشهاداً سنة ٣١٠ (١

وفي ذلك العهد ايضاً ألمع التاريخ الى بعض النصارى الذين حكم عليهم المغتصبون بتعدين معادن لبنان. والمرجَّح انهم أرادوا بهذه المعادن مناجم الحديد التي اشتهرت في بعض المعاملات لاسيما البترون وكسروان والمتن الى اواخر القرون المتوسطة. وفي ذكرها بين اعمال الشهداء ما يوقفنا على تاريخ المعادن في لبنان

على انَّ النصرانيَّة لم تلبث بعد هذه المحن ان تنتصر على اعدائها فخرجت ظافرةً ممجَّدةً على يد قسطنطين الكبير ودخلت في طور جديد ولم تزل مذ ذاك في ترقٍّ متداوم بينما كانت الوثنيَّة تتقهقر وتهبط حتى درست آثارها واقشع ظلامها

لكنَّ عبادة الاصنام أبت ان تنكمش على الاعقاب دون المدافعة والنزاع. فانَّ الشرك بقي زمناً طويلاً حتى بعد تنصُّر قسطنطين وربَّما سعى في ردّ غارات دين المسيح. وكان كثيرٌ من عبدة الاوثان لم يزالوا يتردَّدون الى هياكل الآلهة الباطلة. وكان سدنتها يُعرفون علانية باسم كهنة الاصنام تدلُّ على ذلك كتابةٌ وُجدت في دوما جاء فيها ذكر كاهن يُدعى كاستور يلقب نفسهُ بكاهن اله الطبّ اسكولاب وإلهة الصحَّة

وقد اثبتنا في مقالة سابقة عن افقا انَّ قسطنطين الملك دمَّر هيكل الزهرة فيها. والظاهر انَّ الوثنيين انتهزوا الفرصة في عهد يليان الجاحد ليجدّدوا بناء هذا المعبد

(١ راجع التاريخ الكنسيّ لاوسابيوس (ك ٨ ع ١٣) واعمال القديسين للبولنديين في ١٦ شباط و ١ حزيران وكتاب القديس ايرونيموس في المشاهير (العدد ٧٥)

فانّا نرى عبدة الاصنام في القرن الخامس للمسيح يحجّون اليه لاقامة مناسكهم الدينيّة (١

وان تتبّعنا التقاليد الشائعة في بلاد الشام وجدنا من الآثار ما يعزوهُ اللبنانيّون الى القديسة هيلانة امّ قسطنطين كبعض البروج المبنيّة على ساحل البحر يزعمون انّها اقامتها لتبلّغ ابنها اخبار الاراضي المقدّسة واكتشاف الصليب. الّا اننا بيّنا انّ هذه التقاليد لا صحّة لها (راجع المشرق ٣: ٢٨٩) وانّ هذه البروج شُيّدت بعد أيام الصليبيين لمراقبة الساحل وردّ غزوات الفرنج. ولم تكن هيلانة لتحتاج الى مثل هذه البروج لخابرة ابنها مع ما كان لديها من البريد برًّا على السكك الرومانيّة ومن السُّفن بحرًا وهي تستطيع ما شاءت ان تراسل ابنها في وقت وجيز. ثم انّ التاريخ يفيدنا عن امّ قسطنطين انّها قدمت فلسطين بحرًا وآبت راجعةً كذلك دون ان تتلبّث في مدن فينيقية وثغور لبنان

ومما لا شبهة فيه انّ الدين النصرانيّ كان فاز السهم المعلّى في الساحل الفينيقيّ في اواسط القرن الرابع مع ما تخلّف فيه من بقايا الوثنيّة فضلًا عن جماعة من اليهود كان اكثر سكناهم في بيروت وصيداء. وقد روينا في مقالتنا عن الزلازل في بيروت (المشرق ٢: ١٧١) انّ عددًا غفيرًا من المشركين طلبوا العماد بعد زلزلة ٣٤٩ لكنّ ارتدادهم كان عن الخوف فعادوا بعد زوال الخطر الى ضلالهم وابدعوا شيعةً خلطوا فيها الدين المسيحي والوثني وابتنوا لهم معبدًا اقاموا فيه رتبهم المستهجنة

ولم يمضِ على ذلك زمن يسير حتى اقام الله لكنيسته انصارًا اجتذبوا اهل الضلال الى النصرانيّة بامثالهم اكثر منهم بكلامهم. وإنْ هؤلاء الّا النسّاك والحبساء الذين أَوَوا الى مغاور ثم الى اديرة اضحت بهمّتهم كمنائر سطع منها ضياء الدين المسيحي فبدّدت ظلام الوثنيّة تمامًا

في مبادئ البعثة الرهبانيّة في لبنان

قال القديس ايرونيموس في ترجمة القديس هيلاريون (ع ١٤): «لم يعرف احد من اهل الشام ناسكًا قبل هيلاريون» فمن ثمّ يظهر ان إرَسْمُس الذي سبق انا ذكرهُ مات ولم يقتدِ بنسكهِ احد الى عهد القديسين انطونيوس الكبير وهيلاريون وليس

(١ راجع مقالة الدكتور ج. روفيه المنونة Le temple de Vénus à Afka, p. 15. 16

هذان الناسكان هما اللذان انشأا المعيشة النسكيّة في لبنان كما يروي تقليد بعض اللبنانيين خلافًا للتاريخ الصادق. وزد على ذلك انّ القديس اطونيوس لم يخرج قطّ من القطر المصريّ. والصواب انّ مثلهما حمل نصارى الشام على التشبّه بهما

ولا غرو انّهُ بُوشر مذ ذلك العهد بانشاء الحابس في لبنان بيد انّ التاريخ لم يذكر من امرها شيئًا لقلّة اعتبارها. وانما روى اخبار مناسك أخرى تُدعى مندرة (μάνδρα) ومعناها حظيرة الغنم كان العبّاد يجتمعون فيها تحت رئاسة بعض اكابرهم يدعونهُ لذلك ارشيمندريتًا اي رئيس المندرة. وربما كانوا يدعون ايضًا هذه المناسك لورا (λαύρα) او قينوبيون (κοινόβιον) ومعناهما المُنتدى والمُجتمع. وكان اسم المندرة شائعًا في مصر وجنوبيّ فلسطين امّا الاسمان الآخران فاشتهرا في سوريّة. ولعل مَندَرة احدى مزارع البقاع بجوار تعنايل اشتقّت اسمها المذكور من دير كان سابقًا بقربها (١

ولو تقصّينا آثار الكتب التاريخيّة لوجدنا ذكر بعض هذه الاديرة القديمة الراقية الى اواخر القرن الرابع واوائل الخامس. منها عدلون بين صيدا وصور ليس بعيدًا من صَرْفند. فان فيها عند البحر صخرًا عاليًا حُفر فيهِ نحو ٢٠٠ كهف. ولعلّ هذه المغاور كانت في بادئ الامر مدافن للموتى ولكن لدينا من الادلّة ما يحملنا على القول انّ الرهبان اتّخذوها لهم كما كن أووا اليها. من ذلك ما ترى فيها من شارات النصرانيّة

وفيها صهاريج محكمة الصنع ومرافق متقنة يُصعد منها الى طبقات المغاور العليا وتجمع بين القلالي. ومن اعتبر هذه المساكن الغريبة لا يشكّ في انّ الرهبان وجدهم امكنتهم الإقامة فيها ويؤيد ذلك ما دوّنهُ المؤلفون في تراجم بعض الآباء انّهم كانوا يعيشون في المقابر. وهذه المقابر كانت عبارة عن مغاور مختلفة الكبر اتخذها الاقدمون لموتاهم. والمرجّح عندنا ان عدلون من هذا القبيل فعسى ان يجد العلماء نصًا تاريخيًا يزيل عنّا كلّ شبهة في الامر

وليس بمستبعد ايضًا ان الاغوار المنقورة في الصخر في وادٍ مطلّ على بلاد البقاع بقرب قرية فرزل شماليّ زحلة كانت مأوى للسيّاح. يُستدل على ذلك بدلائل عديدة.

---

١) وكذا دُعيت بعض المدن في اوربّا باسماء الاديرة المجاورة لها مثل موتيار او موستيار Moustier او Moutier في فرنسة ومُنستر Munster في المانية الخ وكلّها مشتقّة من monasterium اي دير

وهذه الكهوف تشبه في ترتيبها مغاور عدلون والاهلون يدعون موضعها الحبيس ويزعمون استنادًا الى تقاليد قديمة انّ سياح القرون الغابرة سكنوها وفي سفح هذه المغاور جدولُ ماء صافٍ يترقرق سائحًا

ومن جملة الاماكن التي يُشار اليها بالشواهد المنقولة انها كانت في سالف الزمان كمعاهد للرهبان مغارة عند قرية هرمل على مقربة من اكبر رؤوس نهر العاصي. ولهذا التقليد اثرٌ في كتبة القرون المتوسطة كابي الفداء والقلقشندي وغيرهما وهم يدعون هذا المكان باسم مغارة الراهب. والموارنة يدعونها «دير مار مارون». ولا يزال الجبل المطلّ عليها مع الاملاك المجاورة لها خاصّة رهبان لبنان الانطونيانيين وكان يسكن البعض منهم هذا المكان قبل عهدنا بزمن قليل مع انّ سكّان هذه الاياله كلهم من المتاولة. وهؤلاء يعرفون هذه المغاور باسم القصور وما لا ريب فيه انّ الناس تحصّنوا فيها سابقًا يُستدلّ على ذلك بما اقاموه من الابنية في مدخلها للمدافعة عنها فزادوها منعةً على حصانتها الطبيعيّة

ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون وفرزل بمحاسنها. وكانت في الأصل طبيعيّة سكنتها كما يظهر قبائلُ عاديّة في الاعصار السابقة التاريخ ولعل هذه القبائل فضّلتها على سواها لحسن موقعها قرب نهر كبير. الّا انّ الخلَف حسّنوا عمل الطبيعة وأضافوا اليه منتدياتٍ نقروها في الصخر على احسن هندام مع قبّة ذات حنيّة مقوّسة ودرج داخلي يُصعد منهُ الى الطبقات العليا وبئر عميق الغور يبلغ الى مياه النهر. وكل ذلك منحوت في الصخر الاصمّ

ومن المنازل التي احتلّتها في العهد القديم نسّاك لبنان وادي قزحيّا والقاديشا. وبقايا العيشة الرهبانيّة فيها ظاهرة حتى الآن صبرت على الأيام وتقلّبات الدهر. وكان بعض الرهبان يعيشون فيها عيشة عموميّة فيجتمعون للصلاة والشغل في كهوف واسعة منقورة في الصخر ترى واحدًا منها اكبر من سواهُ في وسط الوادي. وبعضهم كانوا يفضلون العزلة التامّة فيعيشون منفردين في مغاور صغيرة متفرّقة في جانبي الوادي منحوتة في صخوره منها ما يجري عندها ينابيع صافية ومنها ما يُحدق بها النبات. وكأنها غاية ما يُرام لعيشة العبّاد

وفي بهرة وادي قاديشا دير قُزيين تعريب (κοινόβιον) يعزو التقليد الحلي بناءهُ

الى الملك ثاودوسيوس الكبير. والامر ممكنٌ الّا ان النصوص التاريخيّة لا تفيدنا في ذلك علماً. وعلى رأينا ان ثاودوسيوس منشئ هذا الدير ليس هو القيصر الشهير بهذا الاسم بل احد كبار اباء الطريقة النسكيّة. وقد عُرف بهذا الاسم في ذلك العهد رجلان عظيمان تكرمهما الكنيسة بين اولياء الله. احدهما ثاودوسيوس الانطاكي انشأ في قيليقية ديرًا كبيرًا والآخر اصلهُ من قپادوقية اشتهر في فلسطين وابتنى ديرًا واسعاً تقاطر اليهِ الرهبان من كل فجٍّ وأوب كان بينهم يونان وارمن وصقالبة. ولا جرم بانَّ السوريين واللبنانيين تتلمذوا لهُ ايضاً. وكان ثاودوسيوس المذكور قسّمهم اقساماً على حسب اصلهم ليسبّحوا الله في لغاتهم المختلفة وساسهم الى ان توفّي في اوائل القرن السادس ولهُ من العمر ١٠٥ سنين. ومن اطلع على ترجمة هذا القديس لا يرى فيها صريحاً انهُ قدم لبنان ولعلّهُ زار هذا الجبل في رحلتهِ الى مقام سمعان العمودي (١. ولكننا نعلم من تاريخهِ انَّ تلامذتهُ انشأوا اديرةً عديدة في انحاء شتّى. فلا نزال نتجاوز حدود الحق ان قلنا عن احدهم انهُ احتلّ قُوبين فأسّس فيها ديرًا نسبهُ الناس بعدهُ الى القديس ثاودوسيوس استاذهِ ثمَّ اشتبه الاسم على الخلف فظنّوا انَّ المنشئ هو ثاودوسيوس الكبير الذي اشتهر بتقواه وتذكرهُ الكنيسة اليونانيّة في عداد قديسيها. وما يؤيد هذا الرأي اننا نرى الطائفة المارونيّة تكرم ثاودوسيوس ابا الرهبان اكراماً خصوصيًّا وتعدّهُ بين مشاهير النسّاك (٢. وهذا لعمري شاهد واضح على انَّ اسمهُ كان ذائعاً في لبنان (ستأتي البقيّة)

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

وكانت قد مُدّت في وسط الغرفة التي دخلها المقدّم مائدة الطعام وعليها ألوان واشكال من اللحوم بينها قناني الخمر المعتقة وقد جلس حولها عدد من الرجال والنساء يتهتهون ويتطقون بالاحاديث الغير المهذبة

١) راجع اعمال البولنديين في تاريخ ١٦ كانون الثاني (ص ٦٨٠)

٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدوحي (ص ٣٢)